قالت العرب

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول كم منزل في الأرض يألفه الفتى وحنينه أبدا لأول منزل

أبو تمام

المشهد

العدد 348 – السنة الرابعة عشرة -الأحد 15 مارس 2026 م الموافق 26 رمضان 1447

قطرات من مداد.. فى بحر من دماء!

إيران انتهجت "إستراتيجية الصبر الممتد" واستندت للثقافة الكربلائية

نموذج "الدولة الوطنية" فى الشرق الأوسط، مجرد إطار حديث يحاول تنظيم تاريخ اجتماعى أقدم وأكثر تعقيدًا من الدولة نفسها

أشخاص يحضرون جنازة الضحايا فى أعقاب ضربة صاروخية على مدرسة فى ميناب بإيران يوم 3 مارس آذار 2026..jpg

بقلم ـ معصوم مرزوق

القطرة الأولى:

فكرت كثيراً، قبل أن أحمل قلمى كى أخوض فى هذا الموضوع الشائك؛

كل سطورى التى سطرتها على مر السنين، تناولت الموضوع من زوايا متعددة، ولكننى هذه المرة قد أغامر بعض الشيء فى الإبحار عميقا، راجياً ألا تخدعنى بوصلة الإتجاه، وألا أصطدم بقمة من قمم جبال الثلج التى تتزاحم فى سواحل بحار الشرق الأوسط، وخلجانها.

وقبل بدء الرحلة، قد يكون من المناسب التزود ببعض المؤن الفكرية والحقائقية:

• لا يمكن لأحد أن يطالب مصر بالتورط فى حرب لم تطلبها، ولا استعدت لها، ولا هى قادرة على تحمل أعبائها فى الوقت الحالي؛

• أن أحداً لم يستشر مصر عندما تسابقت بعض دول الخليج العربى لإبرام صفقات أمنية مع أطراف من خارج الإقليم، وكذلك إتفاقيات قواعد عسكرية على أراضيها؛

• قد لا يكون ذلك وقته، ولكن لا بد من أجهزة معينة أن تخرج وثائق "إعلان دمشق" وتنفض عنها التراب، فقد يجد فيها المؤمنون ضالتهم التائهة.

• لا يمكن لأى مراقب منصف إنكار أن حقيقة مشاعر الشعب المصرى فى أغلبيته، وبالفطرة الشعبية، يميل إلى طرف فى الصراع الجارى الآن بين الولايات المتحدة الأمريكية متحالفة ومتواطئة مع الكيان الصهيونى وبين إيران؛

• لا جدال فى أن دول الخليج العربي، تحتل فى الذاكرة والوجدان الشعبى المصرى مكانة مميزة، ففضلاً عما تحمله الجزيرة العربية من مقدسات إسلامية تهفو إليها النفوس، فأن آلاف الأسر المصرية عاشت وعملت فى تلك المنطقة لدرجة أكسبتهم الذائقة الخليجية التى زركشت الطابع المصرى الغلاب الذى ينتشر بقوته الناعمة فى كل الدول العربية؛

• أن كل قذيفة تسقط على أى أرض عربية، هى إعتداء على كل أرض عربية، وكل نقطة دم تنزف من أى مواطن عربى هى دماء تسيل من كل مواطن عربي؛

• أن الزيارة التى يقوم بها السفير بدر عبد العاطى وزير الخارجية المصرى إلى الخليج، زيارة هامة، حتى وإن تأخرت بعض الشيء، وحبذا لو اشتملت أيضاً – بتنسيق أمنى مناسب – على زيارة خاطفة لطهران ، بأجندة سابقة الإعداد بعناية، تحمل نتائج الزيارات الخليجية، وربما تحمل رسائل تهدف إلى حصر نطاق الدمار، وصدور بيان خليجى / إيرانى بصياغة مصرية يتضمن : (١) إلتزاما قاطعا من إيران بعدم استهداف البنية الأساسية لدول الخليج . (٢) إلتزام من دول الخليج بعدم السماح لأى طرف ثالث بإستخدام القواعد العسكرية الموجودة فوق أراضيها فى مواصلة العدوان على إيران . (٣) إنشاء لجنة تنسيق أمنية بين الأطراف بإشراف مصرى .

وقد يجد الوزير المجتهد فى النتائج ما يشجع على القيام بزيارة عمل إلى واشنطن، للبناء على النتائج، ووقف العدائيات بالتنسيق مع السكرتير العام للأمم المتحدة.

• وقد يكون من المناسب أن يوجه وزير الدولة للإعلام بأن تراعى وسائل الإعلام تناغم خطابها مع مضمون ومنهجية ما تقدم.

القطرة الثانية:" لا غالب ولا مغلوب "

هل يمكن هزيمة إيران ؟ ، وكيف تنتصر ؟ ..

تلك أسئلة هامة فى ظل حرب بدأها نتنياهو بعد أن جرجر معه أخيراً دونالد ترامب .

وقد حاولت فى لقاء مع دبلوماسى غربى فى القاهرة إستكشاف بعض مقتربات هذه الحرب التى طالت بأكثر مما قدّر صانعوها ، ودار حديث طويل تضمن أسئلة من الدبلوماسى حول مقالى الأول فى هذه السلسلة (النقطة الأولى) ، ضمن أسئلة أخرى تقارعت فيها الآراء حول موضوعات أخرى تدور حول الإستراتيجية ، ومدى صمود إيران ، وكيفية الخروج من هذه الأزمة .. إلخ .

سوف أحاول بأكبر قدر من التلخيص أن أنقل فى هذا المقال ، أهم ما أبديته من آراء تتكامل مع موضوع مقالى الأول ، مع الإشارة كلما كان ذلك ضرورياً إلى آراء الدبلوماسى الغربى (والتى صاغ معظمها – بحكم المهنة – فى شكل أسئلة):

لتفسير المقاومة التى تبديها إيران ، أوضحت ما أطلقت عليه "النفسية الكربلائية" كأحد أهم العناصر المركزية فى فهم تداخل الدين والسياسة فى الحالة الإيرانية المعاصرة ، والتى تؤكد توظيف واقعة "كربلاء "فى الوجدان الشيعى بوصفها نموذجًا معياريًا للصراع بين العدل والظلم، والشهادة والصمود، بما يتجاوز بعدها الدينى إلى تشكيل إطار ثقافي–سياسى يؤثر فى السلوك الجمعى وصناعة القرار، وامضيت بعض الوقت فى تحليل البنية الرمزية لهذه النفسية، وتفسير كيفية انعكاسها على سلوك إيران فى سياقات الحرب والسلم، مع التركيز على التوازن بين التعبئة الأيديولوجية والبراجماتية السياسية.

أشرت بشكل مختصر إلى أن ما يمكن أن نطلق عليه " المرجعية الكربلائية " تعود إلى واقعة مقتل الإمام الحسين بن على عام ٦٨٠م فى كربلاء، والتى تحولت فى الضمير والوعى الشيعى إلى رمز مركزى للمظلومية والرفض الأخلاقى للسلطة الجائرة ، ومع تطور الفكر الشيعى على مر السنين ، لم تعد كربلاء مجرد حدث تاريخي، بل أصبحت "نموذجًا متكررًا" يعاد استدعاؤه فى كل سياق يُنظر إليه كصراع بين الحق والباطل.. إلخ .

وفى إيران المعاصرة ، اكتسب هذا الرمز بعدًا سياسيًا متصاعدًا، خاصة بعد انتصار ثورة الخمينى عام ١٩٧٩، حيث أعادت الجمهورية الإسلامية صياغة خطابها السياسى على أساس من دمج الهوية الوطنية بالرمزية الدينية وتحويل مفاهيم "الشهادة" و"المقاومة" إلى أدوات تعبئة سياسية مع بناء سردية ثورية تعتبر الاستمرار فى الصراع جزءًا من الواجب الأخلاقى .

أى أنه فى إطار المظلومية التاريخية يتم إعتبار "الذات السياسية " بوصفها طرفًا مستهدفًا تاريخيًا، بما يعزز التماسك الداخلى فى مواجهة التهديدات الخارجية ومن ناحية أخرى تعبر ثقافة "الشهادة" عن نظرة إلى الموت فى الصراع ليس بوصفه خسارة ، بل كإبراز لقيمة عليا، بما يرفع قدرة المجتمع على تحمل الكلفة البشرية للحرب، وقد كان ذلك واضحاً أثناء الحرب العراقية / الإيرانية التى استمرت ثمانية أعوام ، وهكذا وجدنا أن ثنائية الحق والباطل تقود إلى تبسيط الصراعات السياسية فى إطار أخلاقى ثنائي، مما يمنح السياسات بعدًا قيمياً يتجاوز الحسابات المادية البحتة.

وبالرغم أنه قد لا تكون " تجربة الحرب مع العراق " نموذجا يتطابق مع الحرب الحالية ، وخاصة من زاوية حجم وقدرات العدو ووحشيته ، إلا أنه تبقى لهذه التجربة التاريخية أنها كإطار رمزى أسهمت بالفعل فى رفع مستوى التعبئة الشعبية رغم طول أمد الحرب، مع تقليل أثر الخسائر على انهيار الجبهة الداخلية (وذلك رداً على إستفسار حول القلق داخل المجتمع الإيرانى الذى وجد تعبيراً عنه فى بداية العام وقبل الحرب فى شكل مظاهرات بدت وكأنها مقدمة للحرب ذاتها) ، فلقد أسهم ذلك الإطار الرمزى فى إنتاج خطاب تعبوى يربط الاستمرار فى القتال بالواجب الدينى ،وبذلك، يمكن القول إن "الكربلائية السياسية" أسهمت فى بناء ما يمكن تسميته بـ"رصيد معنوى للصمود".

فى الإطارالسابق ، فأن النصر لا يُقاس – من وجهة النظر الإيرانية – فقط بالنتائج العسكرية المباشرة، بل بعوامل أخرى أبرزها الثبات على المبدأ، وإمكانية الاستمرار رغم الخسائر، والإستمرار فى الحفاظ على الهوية السياسية ، أو بمعنى آخر تضاؤل مركزية المكاسب المادية لصالح المكاسب الرمزية.

وقد اعترض الدبلوماسى الغربى فى المقابل، بأن هذا المنطق قد يؤدى إلى إطالة أمد الصراع إذا اعتُبرت تسوياته الدبلوماسية الممكنة "غير عادلة" ، على أساس رفع سقف التوقعات القيمية فى التفاوض من الجانب الإيرانى ، صعوبة القبول بالتنازلات الجزئية .

ذكرت أن هذه النتائج ليست حتمية، بل تعتمد على تفاعل البنية الأيديولوجية مع حسابات الدولة ، بل أن الطرف الإيرانى (تماماً مثل حماس فى غزة ، وحزب الله فى لبنان) قد نجح بالفعل فيما يمكن أن نطلق عليه "إستراتيجية الصبر الممتد" ، وهى تعنى من ناحية أخرى " قضم إرادة العدو فى مواصلة القتال بشكل تدريجى ومنهجى ".

ولكن ينبغى الإعتراف بأن الإكتفاء بذلك وحده ، وإن كان يعرقل " الهزيمة " ، فأنه قد لا يقود أيضاً إلى " نصر " ، إذ تُعقّد هذه الإستراتيجية منطق التسوية ، حيث لا تدخل الاعتبارات الرمزية فى الحسابات الدبلوماسية ، مثل ربط التسويات بمفاهيم "الكرامة" و"عدم الانكسار"، بما يجعل بعض التنازلات تبدو وكأنها مساس بالهوية الثورية.

ورغم عدم إقتناع الدبلوماسى الغربى بمنطق إدارة الصراع طويل المدى لمجرد تجنب " الهزيمة الإستراتيجية " ، إلا أننى أوضحت من خلال دراستى للفكر السياسى للثورة الإسلامية فى إيران (إبان عملى كمدير لشئون مجلس التعاون الخليجى واليمن فى الخارجية المصرية) ، أن ذلك الفكر يجمع ما بين ما سبق الإشارة إليه من خطاب تعبوى كربلائى ، وبين حرفية تجارة البازار الإيرانى الشهيرة التى تكسب ذلك الخطاب جزءاً لا يستهان به من " البراجماتية السياسية " ، ودليلى على ذلك ما انتهت إليه الحرب الطويلة مع العراق ، حيث ظل الخطاب التعبوى كربلائيا عالى النبرة ، لكنهم فى نفس الوقت مارسوا سياسة مرنة أسهمت فى التوصل إلى تفاهمات وإتفاقات ، بأسلوب " لا غالب ولا مغلوب " ، وهذه الازدواجية تشير إلى أن النفسية الكربلائية ليست "قيدًا حتميًا"، بل أداة ضمن أدوات الدولة ، بمعنى أن الإفراط فى تفسير السلوك الإيرانى عبر هذا المنظور وحده قد يؤدى إلى تبسيط مخل، يتجاهل عوامل أخرى مثل الاقتصاد، الجغرافيا السياسية، وبنية النظام الإقليمي.

وختاماً لهذه النقطة من المداد، فإنه فى عالم السياسة الدولية، لا تتحرك الدول فقط وفق حسابات القوة والمصالح وحدها ، بل أيضًا وفق سرديات تاريخية عميقة تشكل وعيها بذاتها وبالآخرين، وهذه السرديات تتحول مع الوقت إلى "ذاكرة سياسية" تؤثر فى قرارات الحرب والسلام، وتعيد تعريف مفاهيم النصر والهزيمة.

ويمكن أن نجد التعبير عن ذلك ليس فقط فى الحالة الإيرانية بل فى فيتنام، وروسيا والصين بل ومصر أيضاً فى تاريخها الطويل ، حيث تتكرر الظاهرة نفسها " تحويل أحداث الماضى إلى إطار تفسيرى دائم يوجّه الحاضر والمستقبل".

القطرة الثالثة: مصر أولا: بين الشعار والإستراتيجية

مرة أخرى يرتفع شعار "مصر أولاً" ، ويثير النقاش وتحتد الآراء فى الجدل، وقد ازدادت حدة هذا النقاش مؤخرا على هامش الحرب الدائرة الآن ضد إيران والتى يشنها تحالف بين ترامب ونتنياهو، وخاصة عندما قامت إيران بتوجيه ضربات قوية متتالية ضد القواعد الأمريكية المنتشرة فى أغلب دول الخليج العربى / الفارسي، حيث تساءل بعض الكتاب فى الخليج عن "الموقف المصري" على ضوء العبارة الموجزة "مسافة السكة"، على إعتبار أنها كانت وعداً رئاسياً مصرياً لا يجوز النكوص عنه، ومن ناحية أخرى توالت ردود بعض المصريين تفند تلك المطالبة، وتستنكر وجود القواعد الأمريكية التى استدعت الهجوم الإيرانى عليها، ووصلت بعض المبادلات / المبارزات إلى حد الإهانة والمعايرة من الجانبين، بل ووصل إلى الإنكار المتبادل بين الطرفين، حيث ادعى البعض فى الخليج أنهم لا ينتمون إلى عالم عربى "لا يهش ولا ينش"، ولا فائدة له فرادى وجماعات، وأن دول الخليج عليها أن تبحث عن أمنها الوطنى مع أطراف غير عربية، ومنها "إسرائيل"، فنهض بعض المصريين بدورهم ساخرين من الإطار العربى، وخاصة خليجه الثرى الذى أعاد الإستعمار الغربى للمنطقة، ونادى هذا البعض بضرورة أن تكتفى مصر بشعار "مصر أولاً"، وتتمتع بـ"عزلتها السعيدة" بعيداً عن أى التزام تجاه شعوب الإقليم المختلفة، وبدأوا فى التنظير العميق على الضفتين!.

وقبل مناقشة تلك الإدعاءات المتبادلة، قد يكون من المناسب الإبحار لبعض العمق بحثاً عن لآلئ المعانى التى غاصت بين أمواج عاصفة ترغى وتزبد ..

وربما يتطلب الأمر أكثر من مقال، ولكنه يستحق فى تقديري، وهو ما سوف أحاوله الآن، مبتدئاً بالتعاريف الضرورية لفتح أبواب النقاش بشكل علمى وحضاري.

ولنبدأ سوياً بطرح مفهوم "الدولة القومية"، بإعتبارها محل الجدل البيزنطى الشوفينى الذى اشتعل أواره، وكل يغنى من ديوان الحماسة لقبيلته! ..

ظهر مفهوم الدولة الوطنية (Nation–State) تدريجيًا فى أوروبا الحديثة، حيث لم يظهر كفكرة جاهزة فى لحظة واحدة، بل تشكل عبر قرون، ويمكن تتبّع نشأة الدولة الوطنية فى محطات رئيسية كما يلي:

١. ما قبل الدولة الوطنية (العصور الوسطى) كان النظام السياسى فى أوروبا قائمًا على ما يلى :

• إمبراطوريات واسعة
• إقطاعيات محلية .
• سلطة دينية قوية (الكنيسة).

ولم تكن هناك حدود وطنية واضحة أو ما يمكن أن نطلق عليه مفهوم "أمة = دولة" .

٢. لحظة التحول الكبرى عام ١٦٤٨:

يُعتبر توقيع صلح وستفاليا Peace of Westphalia فى ذلك العام هو البداية العملية لنظام الدولة الوطنية الحديث.

فقد تضمن هذا الاتفاق:

• إنهاء حرب الثلاثين عامًا فى أوروبا.
• ترسيخ مبدأ سيادة الدولة داخل حدودها.
• الحد من تدخل الإمبراطوريات والكنيسة فى شؤون الدول.

ومن هنا بدأ يتكون شكل "الدولة السيادية المستقلة" .

٣. القرنان الثامن والتاسع عشر شهدا تشكّل "الأمة" فى هذه المرحلة، خصوصًا مع:

• الثورة الفرنسية .
• وصعود القومية الأوروبية.

واتضح الربط بين عناصر (شعب + لغة + ثقافة + حدود)= دولة .

وهكذا باختصار تبلور مفهوم "الدولة الوطنية" بالشكل المعروف اليوم.

وقد وفرت الدولة الوطنية المميزات التالية:

١) الاستقرار السياسى النسبي، من حيث وجود حدود وسيادة واضحة يقلل من الفوضى والصراعات الداخلية بين السلطات المتعددة.

٢) تعزيز مفاهيم الهوية والانتماء الوطنى ، حيث يتم توحيد المواطنين حول بعض العناصر ومنها:

• لغة مشتركة .
• رموز وطنية.
• تاريخ مشترك.

٣) بناء مؤسسات قوية مثل:

• جيش وطنى .
• نظام قانونى موحد.
• إدارة مركزية فعّالة.

٤) التنمية الاقتصادية لأن وجود دولة موحدة يسهل:

• الضرائب .
• التخطيط .
• البنية التحتية .

إلا أنه تجدر الملاحظة بأنه من عيوب الدولة الوطنية كما ظهرت فى التطبيق كانت كما يلى :

١) إقصاء التنوع الداخلى من حيث أن الدولة الوطنية تفترض غالبًا "أمة واحدة"، بما قد يؤدى إلى:

• تهميش الأقليات .
• صراعات هويات داخلية .

٢) صعود القومية المتطرفة تتحول فى بعض الحالات إلى:

• قومية عدائية.
• نزاعات مع دول أخرى.

كما حدث فى أوروبا قبل الحربين العالميتين الأولى والثانية.

٣) خلق الحدود المصطنعة أحيانًا خصوصًا فى الدول حديثة التكوين، حيث لا تتطابق الحدود مع الواقع الثقافى أو القبلى أو التاريخى (مثال سايكس / بيكو ، وإنشاء إسرائيل).

٤) تضييق الانتماءات الأوسع مثل:

• الانتماء الإقليمى .
• أو الإنسانى العالمى .

وهو ما يخلق ما يمكن أن نطلق عليه: "شرنقة وطنية مغلقة"، ما قد يؤدى إلى صدام بين "المصلحة الوطنية" و"المصلحة الدولية".

ولكن فى التحليل الأخير يمكن القول بأن الدولة الوطنية هى نموذج ناجح فى تنظيم السلطة الحديثة، لأنها على الأقل:

• ضبطت الفوضى السياسية القديمة، والتى أدت إلى تفاقم الحروب والصراعات .
• وقامت ببناء مؤسسات قوية .

فإذا كان ما تقدم بإختصار هو مفهوم الدولة الوطنية (Nation–State) فى النموذج الغربى ، فهل هو نفسه فى الشرق الأوسط ، أم أن هناك فروقاً جوهرية بين النموذجين؟، رغم أن الشرق الأوسط قد استورد هذا المفهوم الأوروبى المنشأ، أو فرض عليه بعد الحرب العالمية الأولي. وهذا ما نأمل أن نوضحه فى طريقنا للبحث عن معضلة هذا المفهوم فى إطار الجدل المحتدم حاليا، حيث سوف نحاول فى قطرة المداد التالية أن نفكك التطبيق فى الشرق الأوسط بقدر من التفصيل، مع التركيز لاحقاً على تطوره فى الحالة المصرية .

القطرة الرابعة: نموذج الدولة الوطنية فى الشرق الأوسط

توقفنا عند سؤال حول مدى تطابق النموذج الأوروبى مع تطبيقات الشرق الأوسط، ونذّكر أن كل ذلك يدخل فى معطيات البحث الأساسى حول شعار " مصر أولا " .

مع ملاحظة أن مصر (وإيران وتركيا) تمثل حالة خاصة، سوف أفرد لها فى النهاية تفصيلا خاصاً، فأنه لأول وهلة سوف نجد الوضع فى الشرق الأوسط مختلفا جذريًا عن النموذج الأوروبي، فقد بدا الأمر بداية فى شكل سقوط الإمبراطوريات لا بناء الأمة، فبعد الحرب العالمية الأولى تفككت الإمبراطورية العثمانية، إلا أنه لم تكن هناك "دول وطنية جاهزة"، بل مجرد مجتمعات متعددة الهويات، وقبائل / طوائف / إثنيات، وانتماءات دينية وإقليمية متداخلة .

فى الشرق الأوسط، تم رسم الحدود قبل تحديد الأمة فى شكلها المعاصر، ومن سوء الحظ أن الحدود الحديثة تم رسمها عبر اتفاقيات استعمارية (سايكس–بيكو Sykes–Picot Agreement) حيث تم إنشاء دول مثل: العراق، سوريا، الأردن، لبنان.. لكن جاءت الدولة ككيان مصطنع قبل أن تتكون "أمة موحدة العناصر" داخل حدودها ،والدولة صارت كجهاز إدارى أكثر من كونها تعبيرًا عن أمة، فهى فى كثير من الحالات هى مؤسسة حكم، وليست تجسيدًا لهوية واحدة جامعة.

لذا نجد أن هناك فروقاً جوهرية بين النموذج الأوروبى والنموذج الشرق أوسطى فيما يتعلق بتأسيس "الدولة الوطنية" خاصة فى العلاقة بين الدولة والأمة، ففى أوروبا تشكلت الأمة أولاً، ثم جاءت الدولة بعد ذلك، بينما فى الشرق الأوسط تم خلق الدولة، ثم عكفت بعد ذلك فى عملية صياغة أمة.

ومن ناحية أخرى كان مصدر شرعية الدولة فى أوروبا مستمد من "الشعب / الأمة " ، بينما كان فى الشرق الأوسط مستمد من مزيج من الدولة فى شكلها الحديث، والشرعية التقليدية (قبيلة/دين)، وأحيانًا كان مصدر الشرعية الوحيد هو السلطة المركزية القوية.

ومن ناحية ثالثة، كانت طبيعة الهوية فى كل دولة أوروبية هوية وطنية واحدة غالبًا (فرنسي/ألماني/إيطالي.. إلخ)، بينما كانت فى الشرق الأوسط (بإستثناءات بسيطة) هوية متعددة الطبقات، مثل (عربى / كردى / فارسى / تركي)، أو مسلم / مسيحي، أو مجرد قبيلة أو طائفة أو حتى منطقة جغرافية.

ومن ناحية رابعة، تميزت تجربة الدولة بالإستقرار السياسى المتدرج بعد حروب طويلة، وتضاءلت الهوييات المتنافسة داخل كل دولة، بينما شهدت التجربة فى الشرق الأوسط فى الغالب توترات داخلية، وأزمات حول الهوية، وتدخلات خارجية ترتبط بتركيبة المجتمع.

ومن ناحية خامسة ، كانت العلاقات الخارجية فى النموذج الأوربى تعبر عن الدولة الوطنية متجانسة، تمتلك وحدة سياسية متماسكة، أما فى الشرق الأوسط أصبحت الدولة أحياناً ساحة تنافس إقليمى ودولى أو إطارًا غير مكتمل الاندماج الداخلي.

وفى الختام يمكن تلخيص أهم الفوارق ما بين نموذج "الدولة الوطنية" فى أوروبا والشرق الأوسط، هو أن ذلك النموذج كان حلا أو بمثابة حل لأزمات تاريخية داخلية طويلة، بينما كان فى الشرق الأوسط مجرد إطار حديث يحاول تنظيم تاريخ اجتماعى أقدم وأكثر تعقيدًا من الدولة نفسها، التى جاءت كإعادة تشكيل فوق واقع اجتماعى متنوع ومعقّد.

إذا انتقلنا إلى الوضع المصري، نجد أن مصر تُعد من أكثر الدول استقرارًا فى تبنى نموذج الدولة الوطنية فى الشرق الأوسط، لكنها ليست نسخة أوروبية كاملة، فمصر لها جذور تاريخية عميقة للدولة وتتميز عن معظم دول المنطقة بأنها تمتلك استمرارية حضارية و"دولاتية" طويلة جدًا، حيث كانت مركزية الدولة فيها سابقة على العصر الحديث بقرون، بمعنى أن الدولة فى مصر ليست "اختراعًا حديثًا بالكامل"، بل امتداد لتاريخ طويل من المركزية الإدارية حول النيل.

ولكن يمكن أن نتناول تحديث الدولة فى العصر الحديث، ففى القرن ١٩ مع محمد علي، بدأت عملية بناء جيش مركزي، جهاز إدارى حديث فى دولة مركزية قوية، ثم فى القرن ٢٠ ترسخ نموذج الدولة الوطنية الحديثة بعد الاستقلال.

ولعل السؤال المحورى هنا هو "لماذا مصر أكثر تماسكا نسبيًا"مقارنة ببعض دول الإقليم؟

سوف نجد أن مصر تتميز بتجانس سكانى نسبي، ووحدة لغوية (العربية مع لهجتها المصرية المميزة)، مع عدم وجود انقسامات إثنية مسلحة واسعة .

وقد يمكن إضافة المركزية الجغرافية، حيث يوجد وادى النيل الذى هو محور واحد تقريبا للحياة، بما يقلل من النزعات الانفصالية الجغرافية، مع توافر هوية وطنية قوية، فالمصرية" هوية راسخة فوق أى إنتماءات جزئية أو تجزيئية .

ولهذا لم يكن التحدى الأساسى فى مصر هو إحتمال انهيار الدولة، بل كيفية تحقيق التوازن بين المركزية القوية ومطالب المشاركة والتنمية المتوازنة، أى أن الإشكال ليس فى وجود الدولة، بل فى شكل إدارتها وتوزيع السلطة والثروة .

وبأخذ أثر نموذج الدولة الوطنية على الاستقرار الإقليمى تظهر المشكلة الكبرى فى الشرق الأوسط التى تتمثل فى وجود حدود سياسية لا تطابق الواقع الاجتماعي، فالكثير من الدول تحتوى مكونات متعددة (طوائف/إثنيات)، لكن ضمن حدود رسمت سياسيًا، وقد أدى ذلك إلى استمرار التوترات الداخلية، وصراعات الهوية .

كما يمكن ملاحظة ضعف الاندماج الوطنى فى بعض الحالات فى بعض الدول، حيث يتوزع الولاء بين الدولة، والطائفة، والعشيرة، بل والأيديولوجيا العابرة للحدود .

ونتيجة ذلك إقليميًا نلاحظ ظهور نمط لا يمكن إغفاله وهو ما يمكن أن نطلق عليه : "تصدير الصراع"، حين تؤدى الصراعات الداخلية أحيانًا إلى تدخلات إقليمية أو حروب بالوكالة.

آثار الهجمات الإيرانية فى الدوحة